مجلة التعليمية
ISSN: 2170-1717
EISSN 2602-6015

المجلد 13 / العـدد: 02 (2023)، ص 556- 565

أثر المكوّن الثقافي الديني في تقديس الشعراء الشعبيين للشهيد والشهادة

The impact of the religious culture on the reverence of the popular poetry for the martyr and martyrdom

د. نبيلة بلعبدي*

جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف (الجزائر)

n_belabdi@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2023/03/07 تاريخ القبول: 2023/06/04

ملخص:

لا شك أن ما يجعل الشاعر الشعبي يقدس الشهيد والشهادة ويعطي لهما حيزا ضمن أشعاره الثورية هو تشبعه الديني، فالصورة التي رسمها القرآن الكريم والسنة النبوية للشهيد والشهادة، والمنزلة العالية التي خُص بها الذين يقتلون في سبيل الله، والمقام الرفيع الكريم الذي كُرم به الشهداء ،تؤهل الشاعر الشعبي أن يشحن حماسة الشعب ويلهبها بقصائد تشيد بالشهادة والشهيد، ويحرص على تذكير المتلقي بأن خروجه من الدنيا في سبيل الله هو من أشرف العبادات في الإسلام، فغيابهم بأجسادهم عن الدنيا هو سفر حقيقي إلى عالم موصول بالملذات ليعانقوا الخلود الأبدي هي مفاهيم جسدها الشاعر الشعبي في قصائده ضمن أبياته الثورية مستعملا معجما شعريا دالا على هذا التوجه وهذا التشبع الديني الذي انطلق من حب الله والرسول والوطن، هذا ما سيتم تناوله من خلال المداخلة متطرقين إلى نماذج من الشعر الشعبي الثوري الجزائري.

الكلمات المفتاحيّة: ثقافة دينية؛ شعراء؛ شعبيين؛ ثورة؛ شهيد؛ شهادة.

Abstract:

This communication deals with the impact of the religious values on the popular poetry writings about the martyr and the martyrdom when the inspiration comes from the holly Coran and the Sunna.

In This context, we are handling examples of revolutionary poems and popular songs that glorify the martyr and martyrdom. This poetry has been meant for all the Algerian people classes.

Keywords: religious culture; popular; poetry; revolution; martyr; martyrdom

* د. نبيلة عبدي.

إن الشعر الشعبي والأغنية مقياس من مقاييس التعرف على ذوق الأمة، ويذهب النقاد والباحثون إلى أن الأشعار الشعبية إذا صحبتها الألحان الموسيقية دلت على المستوى الفكري للمجتمعات من خلال البحث في مضامينها وتراكيبها اللغوية والأدبية، وإيقاعاتها الصوتية والموسيقية، وخصوصا إن كان موضوعها المقاومة الجزائرية ضد الاستعمار الغاشم في سبيل الوجود والعيش الكريم وجعلت الشهيد والشهادة تيمة مميزة لها.

يرى العديد من المؤرخين والساسة ان استمرار الثورة التحريرية المجيدة ونجاحها يكمن في ارتباط الشعب الجزائري بالقيم الدينية والروحية التي لا تخرج عن نطاق: الدين، اللغة والوطن، فقد حارب واستمات من أجل هذه الثوابت.

ولا يخفى على أحد أن السياسة الاستعمارية حاولت جاهدة أن تطمس الهوية الجزائرية من خلال تطويق اللغة العربية الفصحى، وغلق المدارس والمساجد والزوايا، وجمعت التراث الشعبي ووُضِع فوق طاولة البحث من أجل دراسة أسرار ومعتقدات الجزائريين، فشجعوا سلبياتهم وحاربوا إيجابياتهم، فجعلوهم يعتقدون أن الاستعمار قضاء وقدر يجب تقبله، وأن الأولياء الصالحين لا يموتون وهم جديرون بالتقديس، فراحوا ينصبون القباب ويوهمون الناس أنها لأناس صالحين يستحقون التقديس والعبادة.

وقد كان لجمعية العلماء المسلمين دور في توعية الأمة من غفلتها ومحاربة الجهل والأمية الخرافات التي زرعتها السياسة الاستعمارية في أوساط المجتمع الجزائري، ودعت إلى الرجوع لثقافتنا الدينية التي حاول الاستعمار طمسها، وأول ما قام به أعضاء جمعية العلماء المسلمين هو محو الأمية ومحاربة البدع والخرافات، وتوعية الشعب بأنه عبر التاريخ حارب المسلمون الكفار الصليبيون وانتصروا عليهم حفاظا على الأرض والوطن، وأنه بإمكانهم الانتصار ولو بإمكانيات بسيطة.

وكان أيضا للشعراء الشعبيين الحافظين لكتاب الله تعالى والمتشبعين بالثقافة الإسلامية دور كبير في إلهاب نار الحماسة بين الناس والدعوة إلى الثورة واسترجاع الوطن من أيدي الغاصبين، فقد كانوا يؤمون الأسواق الأسبوعية وينشدون قصائد موضوعها مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وذكر غزواته ضد الكفار وهذه القصائد كانت تسمى "المغازي" وكانت تروى في حلقات ولمدة أسابيع طويلة تجبر متتبعوها على إتمامها، وأما الراوي أو المداح فقد كان يتفنن في الرواية والقصص فيستخدم الخيال والخوارق كي يثير الدهشة والإعجاب في المتلقي، فمثلا يصف قوة الإمام علي رضي الله عنه فيقول أنها تساوي قوة مئة أسد، وأن سيفه يحصد مئة من الرؤوس يمينا ومثلها شمالا، وأن ابن أخيه عبد الله بن جعفر ينتصر على العدو بمجرد الاستعانة بالله أو قراءته لآية معينة من القرآن الكريم كان قد لقنه إياها الرسول صلى الله عليه وسلم، فكان الشاعر الشعبي حينذاك يتكسب بأشعاره ومديحه، ويبث رسائل خفية تحث على الجهاد ضد المستعمر الذي لم تنفع معه سياسة اللين والحوار وما أخذ بالقوة لا يسترد سوى بالقوة، ويذكرهم بانتصار الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وصحابته على الكفار الظالمين والضالين، وقد نصرهم الله سبحانه وتعالى لأنهم كانوا على حق وما شهادتهم سوى رفعة ونعيم وعيش كريم، وبالفعل أسهم الشعر الشعبي الثوري في زرع فكرة الجهاد في نفوس الجزائريين وكشف سياسة الاستعمار الخبيثة وقد

أدرك من أين تؤكل الكتف، فكان كتاب الله وسنة رسوله خير وسيلة ومنفذ يُشعِر الجزائريون بالأمان والثقة فلم يتراجعوا وفضلوا الموت والاستشهاد على عيشة الذل والهوان، فتأتي ثورة نوفمبر المباركة بكلمة الله أكبر معلنة الجهاد في سبيل الله وهم متيقنين من النصر في الدنيا والآخرة.

وإذا رجعنا إلى بيان أول نوفمبر نجد من بين أهم بنوه: احترام جميع الحريات دون تمييز عرقي او ديني، إضافة على تحقيق وحدة الشمال الإفريقي، والوحدة والتسامح ملمحان دينيان دالّان على قمة التحضر والتعايش، وحتى العلماء المسلمين دعت إلى الوحدة الوطنية في المؤتمر الإسلامي المنعقد في جوان 1936[1].

ويصرح الأستاذ رابح زغدان من قسم التاريخ جامعة الجزائر قائلا "إن قيمولي ذاته صرح أن ثوار الجزائر تدفعهم روح دينية عبرت عنها لفظة الله أكبر، وهي ثورة ربانية جزائرية مخلصة بتفتحها على الآخر، وكان البعد الروحي في الثورة متجدراً ملتزما بالقيم الإسلامية جهاداً ومعاملة"[2].

فلم يكن اختيار تاريخ أول نوفمبر ليكون موعد اندلا ع الثورة مصادفة إنما بدافع المكّون الديني المتأصل لدى مفجري الثورة رغم حظوظهم الضئيلة من تعلم لغة القرآن، إذ صادف ذلك اليوم من سنة 1954 عيد المولد النبوي الشريف، وكان يوم الإثنين الذي يحظى بقدسية خاصة لدى المسلمين، ففيه ولد الهدى صلى الله عليه وسلم، وترُفع الأعمال، وأما الشهادة فقد كانت حلم كل جزائري، ولقب الشهيد هو أعظم وسام، وأقدس ذكرى وهدية يقدمها المجاهد للوطن.

"فالمكّون الثقافي الديني لعب دوراً محفزا في إلهاب نار المقاومة الجهادية ضد المحتل، وليس ذلك غريبا أن تكون كلمات السر في ليلة الفاتح من نوفمبر أسماء لبعض رموز الفتح الإسلامي وأعلامه، وليس غريبا أن تتفق في ثقافة المعركة دوال المجاهد والشهيد والله أكبر عند انطلاق الرصاص في المعارك، وزغردة الثكالى والأرامل لفقد رجالهن وفلذات أكبادهن"[3].

وحلم الشهادة ميزة يختص بها المسلم دون غيره، ولم يكن هذا عند المسيحين وهم يقومون بالحروب الصليبية، وحتى القرآن الكريم والسنة النبوية يرسمان للشهادة والشهيد صورة نورانية مشرفة، ومنزلة عالية، ومقاما رفيعا كريما، ونعيما أبديا لا متناهٍ، يقول تعالى "سورة التوبة: الآية 11" "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون"[4]، ويقول الرسول (ص) فيما رواه مسلم عن صحيحه عن أبي هريرة (ص) أنه قال: "والذي نفسي بيده، لوددت أن أغزو فأُقْتل، ثم أغزو ثم أُقْتل، ثم أغزو ثم أُقْتل"[5].

لذا كان من الطبيعي أن يوظف الشاعر الشعبي ملامح العقيدة الدينية المتأصلة فيه فيحدث التأثير في المتلقي، وإذا تأملنا القصيدة الشعبية الثورية نلمح وجود ظاهرة فنية وتقليدا يسلكه كل الشعراء يتمثل في ثنائية الفواتح والخواتم التي يكون موضوعها البسملة والصلاة والسلام على رسول الله، فعلى سبيل المثال يستهل الشاعر قويدر مالكي من الجلفة قصيدته بهذه المقدمة[6].

نقـــول البســـملة مفتـــاح بيـــان اتقفلـــت والصـــلاة علـــى النـــبي في هـــاذ الـــذات

محمـــد طـــب القلـــوب إذا عطشـــت وقولـــه يشـــفى المســـقوم بعـــلات
مـــن جـــا بالفرقـــان واحكامـــه عمّـــت كامـــل شـــامل مـــا في كـــل الجهـــات
جـــا نصـــران الحـــق واحكامـــه طلعـــت شعشـــع هـــاذ الكـــون منهـــا بيـــه أضـــوات

ويختم قصيدته بمايلي:

وبصـــــلاة الرســـــول ابيـــــاتي كملـــــت والســـــلام عليـــــه خـــــير المخلوقـــــات

وهاهو شاعر آخر من منطقة الشلف يدعي واضح ثابت الجيلاني، لا يختلف في هذا التقليد الكريم عن سابقة ابتدأ بما يلي: (7)

باســـم الله بـــديت هـــاذ القصـــيا الحمـــد والشـــكر لله القـــدير
الصـــلاة علـــى إمـــام الانبيـــا محمـــد شـــفيعنا مفتـــاح الخـــير
يا لحبـــاب نعيـــد لكـــم نظميّـــا شـــكري والرحمـــة علـــى جـــيش التحريـــر
شـــراوا الآخـــره وباعـــوا ذي الـــدنيا قـــاموا بالجهـــاد ذوك أصـــحاب الخـــير

اختتم بما يلي:

الشـــهدا مقـــامهم في العليّـــا مـــع علـــي وزيـــد وحمـــزة والـــزوبير
الصـــلاة علـــى إمـــام الانبيـــا محمـــد شـــفيعنا مفتـــاح الخـــير

وقس على ذلك قصائد أخرى كثيرة مكتوبة ومغمورة تحتاج من الباحثين التنقيب عنها، فافتتاح الشاعر بالبسملة والحمد والثناء على رسول الله صلى الله عليه وسلم هو تبرك محمود يزيد النص حلاوة وإقبالا، وهذه دعوة إلى الإنصات لأن الموضوع مهم أهمية تحرير هذا الوطن، والقصيدة الشعبية الثورية شبيهة في بنائها الفني بالخطبة او الرسالة، ويظهر هذا من خلال الافتتاحية، وختام الشاعر بالصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم، فهي تأخذ من الشعر الإيقاع والقافية، ومن النثر هذه البداية والنهاية، فالشاعر الشعبي الجزائري وثيق الصلة بربه وبيئته، شديد الارتباط بعقيدته الإسلامية، وهي سمة بارزة في شعره وله ثقافة واسعة واطلاع على التراث العربي فأغلبهم كان لهم حظ من الدراسة وحفظ القرآن الكريم ، وكانوا فرسانا في الشعر الشعبي الملحون بطبوعه ومقاماته فقد كان متنفسهم الوحيد يعبرون به عن مشاعرهم وأحزانهم حين يعجزون عن تغيير الواقع الأليم، فيرسمون صورا مشرقة يبثونها في آذان السامعين فتنتشر وتردد أملا في تكاثف الجهود وفي الفرج القريب.

ومن ناحية أخرى يوظف الشاعر الشعبي المكّون الثقافي الديني عندما يخص الشهيد والشهادة بالذكر، معتبرا الشهادة من أشرف العبادات في الإسلام، مقتنعا كامل الاقتناع أن خروجه من الدنيا هو في سبيل الله لأنه سيحظى بسعادة أبدية حينما يجتمع بالشهداء الذين سبقوه إلى جنة الخلود، رافضا أن يموت ميتة الجبناء، فدمه وحياته فداء للوطن ومنه قول الشاعر واضح ثابت الجيلالي.

شـــراو الآخـــرة وباعـــوا ذي الـــدنيا وقـــاموا بالجهـــاد ذوك أصـــحاب الخـــير

مـــــا غـــــواهم لا مـــــال ولا ذريّا قـــالوا للأمـــام مـــا كـــاش التـــأخير

الشــــــهداء مقـــــامهم في العليّـــــا مـــع علـــي وزيـــد وحمـــزة والـــزبير

ويقول شاعر آخر(8)

يا ســعد الي ســبل العمــر مــا يتحــير نصــر وجنــة مــا يخيــب فيهــا يتخبــل

يا مــومن وقــت الجهــاد كــل آخــر يصــبر ســبل عمــرك لا تخــاف المشــاكل تنحــل

أجلـــك عنـــد الله كـــن صـــابر تتنصـــر وطنـــك فيـــه رجـــال عزتـــه لازم تكمـــل

نلاحظ توظيف الشاعرين، للقاموس الثقافي الديني، واستحضار الحس الاستشهادي الذي يظهر البعد العقائدي العميق الصادق مستخدمين معجما دينيا صريحا احتوى على الآخرة – الجهاد – مقام – الشهداء – العلية – علي – حمزة – زيد – الزبير – النصر – الجنة – المؤمن – الأجل – الله – الصبر).

ألح الشاعران على استخدام كلمات وأعلام وصيغ مشعة بالحركة والتعاطف تتسلل إلى وجدان المتلقي بسهولة لأنها ترسم له صورة رائعة عن الشهادة والشهيد، وما ينالوه من قرة أعين لأنهم أحبوا الوطن بصدق، فهم يفضلون الشهادة في سبيله وفي سبيل الله لأنهم ينطلقون من شعار الثورة التحريرية "النصر والشهادة".

فثقافة الشاعر الدينية تغذيها ثقافة القطيعة ورفض الذّوبان في كيمياء الثّقافة الفرنسية، لأن المسلم الجزائري مستعلٍ بدينه على الكافر الضال ،فكانت هذه الثقافة على بساطتها هي الصّخرة الصّلبة التي تكسّرت عليها أساليب الكيد ومكر اللّيل والنهار(9).

وما أسهم في إشعال لهيب المقاومة هو اتّجاه القصيدة الشعبية الثورية نحو الغنائية والإنشادية، لترقص الكلمات على أنغام الألحان الحماسية تارة، والمواسية تارة أخرى، فيصل هذا الحس الدّيني المفعم بالوطنية الحاث على الجهاد والشهادة إلى جميع الفئات الشعبية لتُردَّدَ دون توقّف، لأنّها ترفع معنويّاتهم.

فالفن الغنائي آنذاك كان يتجه نحو الالتزام، وجعل من القضية الوطنية والتشبع الديني موضوعا له، لأنه رسالة قيمة تسهم في تربية النشء، لذا كان اختيار المواضيع والأشعار وحتى الألحان يخضع لضوابط محددة من شأنها أن تسهم في الدعم النفسي للشعب الذي يعاني ويلات الحرب، وتربية النفس على الصبر والإصرار على المطالبة بالحقوق المشروعة، والفخر بالانتماء إلى الأرض والوطن، وتقديس الهوية، ومن أمثلة ذلك أشعار أغنية "حزب الثوّار" لـ الفنّان رابح درياسة:

حـــزب الثـــوّار ومعـــاهم هانـــت لعمـــار الله ينصـــر

حـــزب الثـــوّار واحنـــا محينـــا اللاســـتعمار الله ينصـــر

أوّل نـــــوفمبر ينـــــادي الجهـــــاد يكـــــبر الله ينصـــر

الله أكــبر، يا رب انصــر ثورتنــا ضــدّ الكفّــار الله ينصـــــــــــــــــــــــــــــــر

نجد المعجم الشعري الدّيني يتكرّر في الأغنية الشعبية الثّورية، فهو لا يخرج عن نطاق ألفاظ (ثوار –أعمار– الله(مكرّرة)– النصر– الجهاد – يا رب– الله أكبر)، ومن المؤكّد أن الوازع الدّيني من أكبر المؤثّرات التي توحّد صفوف الجزائريّين لخوض غمار الحرب وتطهير الوطن من الكفر والظّلم والدّنس، وثقة المواطنين كبيرة في الله وسينصرهم لا محالة، وحاشا لله أن ينصر الظالمين.

وها هي نماذج أخرى من أغانٍ ثوريّة شعبية تواسي الأمهات اللّواتي فقدن ذويهم وفلذات أكبادهم، تطلب منهن رفع هاماتهن عالياً، لأن هؤلاء قد أدّوا الواجب الدّيني والوطني كاملاً، وهم شرفٌ للجزائرِ وفخر لها، ومن أمثلة ذلك:

يا أمّـــــــي لاش تبكـــــــي علـــــــيّ ولـــــــــدك مجنّـــــــد في الوطنيّـــــــة

حـــــبّ الجزائـــــر واجـــــب علـــــيّ روحـــــــــي ومـــــــــالي للوطنيّـــــــة

يا أمّـــــــي لاش تبكـــــــي علـــــــيّ ولـــــــدك مضـــــحّي علـــــى الحرّيــــــة

شـــــبّان بـــــــلادي قومـــــوا جميعــــــاً حيـــــــاة الـــــــذل راهـــــــي شـــــنيعة

دمّـــــــي نعطيـــــــه روحـــــي نفديـــــــه ضـــــــدّ الحكومـــــــة الاســـــــتعمارية

وأغنية أخرى لعيسى الجرموني بعنوان: "جينا من عين مليلة" نصّها:

سَمعـــــــــت ســـــــــعيدة وبكـــــــات قالـــــــــت وخيـــــــاني مــــــــات

مـــــــــا تبكـــــــيش يا عيـــــــــنيّ مـــــا تبكـــــيش علــــى ولـــــد الشّـــــهيد

ابكـــــــي ابكـــــــي علــــــى الحركـــــــي لا يعـــــــدل ولاحـــــــق الرّومــــــــي

وهذه الأشعار تكفكف دموع الأمهات والنسوة اللواتي ذقن مرارة الفراق وترفض البكاء على الشهيد فخر الوطن عالي المقام عند ربه، إنما من يحق عليه البكاء هو خائن الوطن الذي فضل طأطأة رأسه لفرنسا الاستعمارية على المقاومة والعيش بشرف وكرامة، فهو وصمة عار على ذويه وعلى الوطن، وهكذا هي الأشعار الشعبية الثورية المتشبعة بالوازع الديني تقدم دعما نفسيا يحول البكاء والحزن إلى فرح وراحة نفسية يقذفها المولى تعالى في النفس إذا رضي واقتنع بالجزاء الإلهي وبالعدالة الإلهية.

والأغنية الشّعبية بشكلٍ عامٍ "شأنها شأن سائر أشكال التعبير الشّعبي السابق ذكرها، لا يُتغنّى بها لمجرّد التسلية كما هو الحال في الأغاني التي نسمعها في الإذاعة المرئية وغير المرئية، بل هي تعبير صادق عن وجدان الشّعب، وشكلٌ أدبيٌّ يُودعه الشّعب قيمة الحضارة في انفعالٍ صادقٍ"[(10)].

فآلام وأشجانُ الأمّهات شحنت الشّاعر الشعبي بحسٍّ فنّيٍ يتدفّقٌ حلاوةً وطلاوةً بأغانٍ شعبيةٍ ثوريّةٍ ذاتِ نغمةٍ حزينةٍ أحياناً؛ وتفاؤليّةٍ في أحايين أخرى، فكسرت كلَّ الطابوهات التي أقرّها المستعمر الفرنسي، وتعالت

أصواتُ النساءِ والرّجالِ والجنودِ والأطفالِ مردّدين هذه الأغاني بعثاً للأملِ، وحشداً للهممِ، وتحريضاً على الجهاد ومن ثمّة الشّهادة، وعزفاً على أوتارِ العاطفة بذكرى حال الثكالى واليتامى والجنود تحفيزاً على المضيِ قدماً في مواجهة ظلمِ ووحشيّة الاستعمار الفرنسيّ[11].

من خلال قراءة هذه المقاطع الغنائية، نستشفُّ قوّة روحية لا مثيل لها، وإصرار عجيب من الجزائريّين في محاربة الاستعمار الفرنسي دون هوادة لأنه اليقين الذي اقتنعوا به "ولهذا كانت تلك الأغاني الشعبية رصاصاتٍ معنويّةٍ تحمل الموتَ إلى قلوبِ المستعمرين الغاصبين"[12]

وهذا بيّنٌ من خلال النّصوص الواردةِ التي تخفّف دموع الثّكالى، وتدعوهم إلى التباهي بهم وبشهادتهم، فهم في رعاية المولى فرحين بما آتاهم من فضله، وليكسبوا الثوّار وأهالي الشّهداءِ على حدِّ تعبير زكريا صيام: "صناعة الرّهبة من طائرات العدو وقذائفه، وضدّ ما يصيبهم من جراحٍ وتقتيل، فهناك طاقةٌ مخيفةٌ داخل النفسِ الثورية تمنع صاحبها من الهلع، فيلاقي الموت مبتسماً"[13].

هكذا هي الأشعار الشعبية الثّورية، ظاهرة ثقافية واجتماعية تتأثّر بالأحداث السياسية والاجتماعية، وتتفاعلُ مع القضايا التي تصيبُ الشّعوبَ، والظّروفَ التي تعيشها ليكون الشاعر مجاهداً بالقلمِ والشعرِ والكلمةِ التي تزيدُ في إذكاءِ الحسِّ الوطنيّ، وإيقاظِ الضّميرِ الشعبيّ، والترغيبِ في الجهادِ والشّهادةِ، وتبعثُ الأملَ في النّفوسِ وتقتل اليأسَ الذي ترسّب في الفئاتِ الشعبية، ومن أمثلة ما عُبِّر به عن إرادة الشّعبِ الصادقة في حبّهم للشّهادة، وتكريم المولى للشّهيد انطلاقاً من دورِ العقيدة التي شكّلت للمجتمع مناعة ضدّ ما يمكن أن يتعرّض له الثائر من تردّد وانحرافٍ عن الرّسالة السماوية التي كلّف الله بها عباده إن تعرّضوا لغزوٍ وانتهاكٍ للوطن والعرض والدّين، ومن أمثلة ذلك ما أورده التلي بن الشيخ لشاعر مجهول[14]

عســـــكر الاســـــتعمار جـــــا يحاربنـــــا ... وقـــت الفجـــر حـــط قـــوّة مـــن القـــوات
قبـــل يبـــان الحـــال جملـــة تواعـــدنا ... نادى الجنـــد قـــال ذا وقـــت الصـــلاة
مـــن بعـــد الصـــلاة كـــل تواعـــدنا ... كـــل أخـــر منـــا فـــارح للممـــات
الي عمـــره حـــد يقصـــد الجنّـــة ... تـــدخل روحـــه طـــاهرة للحـــوريات
الصـــبر والإيمـــان هومـــا قوّتنـــا ... حاربنـــا علـــى الحـــق ضـــد الظّلمـــات

ويبدو أنّ أغلب ما يميّز النصوص ذلك الخطاب الواثق الخالي من أسلوب الشكوى والتظلّم والبكاء، وهو ينبع من قوّة داخلية روحانية تسلّحت بنورانية الإيمان التي أرهبت العدو، فكانت أشدّ وقعاً عليه من المدفعيات والقذائف والطّائرات.

والملاحظ أن جل قصائد الشعر الشعبي الثوري مجهولة القائل، وكم من شاعر سُجِن أو قُتل بسبب قصيدة تدعو إلى الجهاد في سبيل تحرير الوطن من الاستعمار، أو التغني بالوطنية وحب الوطن وجماله، ومن أمثلة ذلك

شاعر فنان من مدينة تيارت يُدعى "علي معاشي" وقد أُعدِم بسبب قصيدة غنائية تشيد بالجزائر وعراقتها وأنها ملك للجزائريين يقول فيها:

يا ناس آما هو حبي المختار
يا ناس آما هو عزي الأكبر
لو تسألوني نفرح ونبشر
ونقول بلادي الجزائر

وكثيرون هم الشعراء الذين يستعيرون لأنفسهم ألقابا حتى يتجنبون الضرر ويأمنوا شر العدو ، هذا هو الشعر الشّعبي حينما يتحدّث عن الوطن والتضحية في سبيله، نلمح من خلاله حياه الشعب الجزائري بأفراحه وأحزانه وخيباته ومطامحه، يُعد وثيقة قيّمة تطلعنا على ماضينا المفعم بالأحداث، إضافة إلى أنّه وثيقة تاريخية صادقة حافظت بكلّ أمانةٍ على قيمنا رغم محاولة طمسها، وفي هذا الشأن يقول هردر: "إنّني أرى الشعر عامة هو إنتاج جماعي وإنتاج شعبي يتطلّب آذاناً كثيرة لتسمع، وحناجر كثيرة لتردّد، وقد ظلّ الشعر يعيش في أذن الشعب وعلى شفاهه يحفظ لنا التاريخ والأحداث والأسرار والمعجزات والآيات[15].

ومازال يصلنا صدى الشعر الشعبي الثوري وكذلك الأغاني الثورية بتلك الألحان الحماسية تارة والحزينة الباكية تارة أخرى، لتسافر بنا عبر الزمن فنعيش أحداث التاريخ بجوارحنا ومشاعرنا، فقد كان للمرأة نصيب في التغني بالوطن والاستشهاد في سبيله، نجد ذلك من خلال الأشعار والأهازيج التي كانت تتغنى بها في الأعراس والمناسبات العائلية والسهرات، فالمرأة الجزائرية كانت واعية متطلعة للحرية والاستقلال ولو على حساب حياتها، فحسن الظن في المولى جعلها تقدم على المقاومة والشهادة، وكانت النساء وهن في البيوت يكبرن عند سماع صوت الرصاص في المعارك، ويزغردن بأعلى صوت إذا استشهد الرجال، ويظهر ذلك جليا من خلال أهازيج شعرية غنائية تطلب فيها من والديها أن يلبسوها سروالا وبرنوسا وهو رمز الشهامة والرجولة الجزائرية والالتحاق بصفوف المجاهدين بقولها في هذه الأهزوجة المنقولة من السماع:

لبسوني برنوس وسروال طويل ونمشي معاكم يا أصحاب الليل
يا والديا لبسوني جندية والا مت بحر عليا
سنيبت مع خاوتي لقديمة والا مت لا تبكيوش عليا

وعبارة "إلا مت بحر عليا" تعني أنها لا تبالي بهذه الميتة المشرفة وتطلب من والديها عدم البكاء، وبهذه العبارات البسيطة الصادقة تلهب المرأة حماسة الشعب وتدعو النساء إلى الثورة والمشاركة في تحرير الوطن ولو على حساب حياتها لأنها تدرك ما ينتظر الشهيد من ثواب

وكثيرة هي الأشعار التي تواسي الأمهات الثكالى عند فقد الأزواج والأهل والأبناء، عبرت من خلالها المرأة شعرا وغناء شحنتها بمشاعر الأسى، ليختلط فيها البكاء بالصمود والشجاعة، ومن بينها أهزوجة من الشرق الجزائري رُدِدت في كامل القطر الوطني، وهي لامرأة شابة فقدت الوالد والإخوة، ولم يتبقَّ لها سوى أخ وحيد وهي

تخشى حزن والدتها عليه إن فارق الحياة، ومن أساليب الاستعمار الوحشية استعماله للطائرات الحربية التي تطلق القذائف النارية فتأتي على القرى وأهلها وهي معروفة لدى العامة باسم "الطيارة الصفراء" تقول:

الطيارة الصفراء حبسي ما تضربيش عندي راس أخي لميمة ماتضنيش

أسي أسي يا امى أسي ماتبكيش طالعة للجبل نموت ومانزنديش

الله الله ربي رحيم الشهداء

هذه المرأة تطلب وتتوسل من الطائرة الحربية صفراء اللون أن تكف عن القذف خوفا من فقد الأخ الوحيد المتبقي، ورأفة على الأم التي ستصاب بصدمة قوية لأنها لن تنجبه ثانية، ثم تستعمل لفظة "أسي" طالبة منها أن تكفكف دمعها وتكررها عدة مرات، وتحضرها نفسيا لما سيأتي قائلة لها أنها سوف تلتحق بصفوف المجاهدين في الجبل وأنها تفضل الموت بشرف على الخضوع والاستسلام، ثم تؤكد في مقاطع كثيرة ثقتها في المولى تعالى ورحمته الكبيرة والعظيمة على الشهداء.

ونكتشف أن السياسة الاستعمارية سخرت خططا هادمة تنسي من خلالها الشعب الجزائري دينه وعقيدته، ورغم غلقها للمساجد وتحويلها إلى كنائس، ومنع الجزائريين من التعلم في المدارس ودور العلم، فقد وجدوا ضالتهم في عقيدتهم الصحيحة التي توارثوها أبا عن جد، ولم يتخلوا عنها رغم محاولات العدو التي باءت كلها بالفشل .

الهوامش:

(1) ينظر: التلي بن الشيخ، منطلقات التفكير في الادب الشعبي الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص 56.

(2) أخذت الباحثة هذه الفقرة من مقابلة خصّت بها إذاعة القرآن الكريم الأستاذ رابح زغدان بتاريخ نوفمبر 2015.

(3) أمحمد زغوان، المكوّن القيمي الراتب في ثقافة المقاومة الجزائرية، مجلة الأدب والعلوم الاجتماعية، جامعة سطيف، العدد03، نوفمبر، 2005، ص 53.

(4) سورة التوبة، الآية 11.

(5) موقع شبكة الألوكة، www.alukah.net يوم 12، 03، 2017 على الساعة 20:00 العنوان الشهيد والشهادة في ضوء القرآن والسنة.

(6) بث هذه القصيدة في الحصة التلفزيونية خيمة الشيخ عطا الله الجلفة 02 جوان 2006.

(7) تحصلت الباحثة على هذه القصيدة من قريبة الشاعر (كان على قيد الحياة) سنة 2005.

(8) ينظر: فاطمة الزهراء شلبي، النزعة الوطنية الثورية وأساليبها الفنية في القصيدة العامية، ديوان مغذي الأرواح ومسلّي الأشباح للتومي الحاج سعيدان نموذجا، رسالة ماجستير، مخطوط، باتنة، 2006- 2007، ص 68.

(9) ينظر: أحمد زغوان، المكون القيمي الراتب في المقاومة الثقافة الجزائرية، ص52.

(10) نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار غريب للطّباعة والنشر والتوزيع، ط3، مصر، دت، ص 251.

(11) ينظر سعيدة حمزاوي، في الأغنية الثورية الأوراسية، مجلة التبيين، الجمعية الثقافية الجاحظية، العدد 32، الجزائر، 2009، ص89.

(12) ينظر: طلال سالم، الشعر الشعبي والانتفاضات، مجلة التراث الشعبي، ع 10، 1977، ص 273.

(13) صيام زكريا، معالم شخصية الجزائر في شعر جزيرة العرب، مجلة الثقافة، العدد 104، 1994، ص 192.

(14) التلي بن الشيخ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري، ص 82.

(15) رابح بونار، الشعر الشعبي وتطوّره الفني، مجلة آمال، العدد 68، الجزائر، 1969، ص 09.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية ورش

1- التلي بن الشيخ، منطلقات التفكير في الادب الشعبي الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.

2- أمحمد زغوان، المكوّن القيمي الراتب في ثقافة المقاومة الجزائرية، مجلة الأدب والعلوم الاجتماعية، جامعة سطيف، العدد03، نوفمبر، 2005.

3- رابح بونار، الشعر الشعبي وتطوّره الفني، مجلة آمال، العدد 68، الجزائر، 1969.

4- سعيدة حمزاوي، في الأغنية الثورية الأوراسية، مجلة التبيين، الجمعية الثقافية الجاحظية، العدد 32، الجزائر، 2009.

5- صيام زكريا، معالم شخصية الجزائر في شعر جزيرة العرب، مجلة الثقافة، العدد 104، 1994.

6- طلال سالم، الشعر الشعبي والانتفاضات، مجلة التراث الشعبي، ع 10، 1977.

7- فاطمة الزهراء شلبي، النزعة الوطنية الثورية وأساليبها الفنية في القصيدة العامية، ديوان مغذي الأرواح ومسلّي الأشباح للتومي الحاج سعيدان نموذجا، رسالة ماجستير، مخطوط، باتنة، 2006- 2007.

8- نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار غريب للطّباعة والنشر والتوزيع، ط3، مصر، دت.

9- موقع شبكة الألوكة، www.alukah.net يوم 12، 03، 2017 على الساعة 20:00 العنوان الشهيد والشهادة في ضوء القرآن والسنة.